



حديث العقل والقلب

تذوق وتحقق

بمقام
المكتبة المحمدية كسرويه

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

طوال شهر تصفو فيه القلوب ، فإذا
هي أقرب ما تكون إلى علام الغيوب ،
وأبعد ما تكون عن عالم حسي
أو عقلي أفسدته الخطوب والكروب ،
وإذا حياتنا في ذلك الشهر المعظم حياة
روحية خالصة وجدنا فيها رددنا خلالها
من تسيجات ، وما تلقينا في أيامها
وليا لها من نفحات ، جلاء البصائر ،
وصفاء الضمائر ، ونقاء السرائر ، فلم
يكن بد من أن نخلو إلى قلوبنا ، وأن
نخلو بين قلوبنا وبين هذه الحياة
الروحانية الخالصة التي ليس من شك
في أنا واجدون فيها نجوى النفوس
الزكية ، وسلوى الضمائر الصافية ،
وقوت القلوب النقية .

وها نحن أولاء يا بني قد تزودنا
من شهر الهدى والفرقان بخير الزاد ،

جلس الشيخ المرشد بين يدي
مكتبته ، مغرقاً في مطالعة كتيبه . معنأ
فيما هو بسيله من أفكار ملأكت عليه
عقله ، وأسرار امتلأ بها قلبه . وبينما
هو كذلك إذ أقبل عليه مريده
المسترشد ، فسلم عليه ، وجلس بين
يديه ، ولم يكذ يستقر به المجلس حتى
ابتدأه الشيخ بقوله :

لعلك تحس معي أن الأمد قد طال
على حديث العقل ، وأن الصلة بيننا
وبين هذا الحديث قد انقطعت منذ طلع
علينا هلال رمضان بإشراقاته الروحانية
وأفاض على قلوبنا من نفحاته
النورانية ، فإذا نحن ننصرف عن
حديث العقل إلى أحاديث أخرى لعلها
كانت ألد وأمتع ، وأجل وأروع ،
ذلك بأنها أحاديث القلوب إلى القلوب

وعرفنا فيه كثيراً مما ينفع في المعاش
والمعاد ، واتخذنا منه معيناً نستعين به
ومعيناً نهمل منه ، فلا بأس علينا إذا
عدنا اليوم إلى حديث العقل الذي
لعلك تذكر أننا وقفنا فيه عند إظهار
الصلة بين النفس والعقل ، والإبانة
عن منزلة العقل من النفس ، وانفقتنا
على أن نلتقي في حديثنا المقبل على
تعريف ماهية العقل وحقيقته ، حتى
يتبين لك وجه الحق في هذه الحقيقة ،
ويتبين لك معه كيف تستطيع أن تحقق
ما أردت على تحقيقه حين قلت لك :
« كن عقلاً واعياً ... »

على هذا النحو وجه الشيخ المرشد
حديثه إلى مريده المسترشد ، وكان هذا
المريد من الصمت والسكون والإنصات
إلى شيخه وهو يتحدث إليه بحيث لم
يتحرك حركة ، ولم يلفظ لفظاً ، بل
كان مأخوذاً كأن على رأسه الطير ،
مستغرقاً مع أستاذة في حديث
التسليمات والنفحات كأنه قد أصاب
في هذا الحديث عزاء نفسه وغذاء
قلبه ووجد عنده راحة روحه وملاذ
ضميره ، فإذا هو يسكن إليه ، ويأنس
له ، ويطمئن به . ولم يكدر يفرغ
شيخه من خطابه إليه على هذا الوجه
الذي ملك عليه كل قلبه حتى يجعل

يتمم فيما بين شفقتيه بكلمات كانت في
أول الأمر خافتة خافية لا تكاد تبين
في ذاتها ، ولا تكاد تبين عن شيء مما
يدور في نفس صاحبها ، ولكنها
ما لبثت أن بانث شيئاً فشيئاً ، وأن
انضحت رويداً رويداً ، وذلك عند
ما أخذ المريد يرفع صوته قليلاً قليلاً
ثم أخذ يقول :

لست أدري يا سيدي على أي
وجه أتحدث إليك ، ولا بأي من
الالفاظ والعبارات أحمد لك . ومهما
يكن من شيء فلقد والله حدثتني
حديث القلب إلى القلب عن القلب ،
وأثرت في نفسي ذكريات تلك الأيام
التي طويناها صابرين صابرين ، وتلك
الليالي التي أحييناها قائمين شاكرين ،
فإذا أنت تطويني في نفحات ، وتحينني
في تسليحات ، وتردني إلى أصنى
الموارد وأحلاها ، وأشفى المناهل
وأشهاها ، وإذا أنا أتمثل بين يديك
الآن حياتي الروحية تلك التي كنت
أحيها في رمضان مع ربي ، ومن
أجل ربي ، ولا أبتغي بها غير وجه
ربي ، فهو وحده الذي امتلأ به قلبي ،
ووفقت عليه وحده حبي ، ولم أكن
في ذلك مسرفاً أو متطرفاً ، ولا مفضاً
للحياة الدنيا ، ولا منصرفاً عما ينبغي

على من حفظ الحقوق وأداء الواجبات نحو الخلق بقدر أداء هذه الواجبات وحفظ تلك الحقوق نحو الحق ، ذلك بأنني إنما أحببت الله وأحببت كل شيء فيه وبه : أحببت الحق وتحققته لأنني أحب الله الذي هو الحق الأعلى ، وأحببت الخير وحقيقته لأن الله هو الخير الأسنى ، وأحببت الجمال وتذوقته لأن الله هو الجمال الأسنى . فإذا قلت إن الله وحده هو الذي امتلأ به قلبي ، وإنه ذو وحده الذي وقفت عليه حبي فأما أعني أن من يحب الله فقد أحب كل شيء في ثنايا حبه لله .

وهكذا ترى يا سيدي إلى أين نقاني حديثك العذب ، وعلى أي وجه أثار في قلبي مكنون الضنى ومكتوم الشجن ، كما ترى أنه ليس أشهى للقلب من حديث العذب ، ولا أدعى لبهجته وسعادته وراحته من نفحات الحب . وإذا كان ذلك كذلك فإذا علينا إذن لو أقبلنا اليوم بكل ما فينا من قلب على حديث القلب فاسترسلنا فيه ، وأعرضنا عن حديث العقل فأمسكنا عنه وهنا ابسم الشيخ المرشد ابتسامة عبر بها تعبيراً مزدوجاً عما كان لكلام مريده من أثر في نفسه : فهي ابتسامة تعبر عن الرضى والإعجاب من ناحية ،

وعن اللوم والعتاب من ناحية أخرى ويتبين هذان المعنيان فيما وجهه الشيخ إلى مريده من قوله له :

لقد أخذك يا بني ما في حديث القلب من روعة ، وماله في القلب من سحر ومتعة ، وأردت أن تطلق قلبك على سجيته مع هذا الحديث الرائع الساحر الممتع ، وأنا لا ألومك على هذا ولا أعتب عليك فيه ، بل أوافقك على كل ما أظهرته من ذات قلبك ، وما كشفت به عن حقيقة حبك . ولكن ألا ترى معي أننا يوم انفقنا على أن ندير هذا الحديث بينما قد انفقنا أيضاً على أن يكون موضوعه العقل والقلب معاً ، لا العقل وحده ، ولا القلب وحده ؟ ثم ألا ترى معي أيضاً أننا قد جملنا من أجل هذا عنوان حديثنا : « حديث العقل والقلب » ، وأنه من هذه الناحية يجب ألا نسرف في أحد الطرفين على حساب الآخر ، وألا نتحيف من حق أحدهما إشباعاً أو تشييعاً لحق الآخر ؟ ثم ألا ترى بعد هذا كله أنني يوم توليت أمرك وتديرك قد قلت لك : « كن عقلاً واعياً ، وكن قلباً صافياً ، وكن ضميراً صاحبياً » ، ثم قل بعد ذلك ما شئت لمن شئت ، وافعل ما شئت

مع من شئت ، فلن يكون قرلك
 الا صدقاً ، وإن يكون فعلك الاحتماء ،
 فأنت ترى يا بنى أنى لم أرد أن أجعل
 منك قلباً لحسب ، وإنما أردت
 ولا زلت أريد وأربدك على أن تكون
 عقلاً وقلباً وضميراً . فإذا كنت عند
 هذا كله . وتحققت فى حياتك النظرية
 والعلمية والروحية بهذا كله ، واستطعت
 أن تلتئم فى أقوالك وأحراكك
 وأفعالك بين هذا كله ، كنت من غير
 شك من السائرين على الصراط المستقيم ،
 ومن الظافرين بالقوى العظمى . وهذا
 يعنى يا بنى أن سيدك الى المعرفة
 اليقينية والسعادة الحقيقية ، اما هو
 المتحقق بكال العلم وكال العمل ، وأن
 سبيل التحقق بهذين الكالين اما يتهياً
 لمن يخضع حياته الحسية والنفسية
 لرياضة روحية يأخذ جوارحه فيها
 بالتصفية ، وجوانحه بالتنقية ، بحيث
 يصفى على هذه الجوانح ولك الجوارح
 أبواباً من عقله وقلبه وضميره ،
 وبحيث تجتمع هذه القوى والمملكة
 على وجه تألف فيه وتتحد معه ،
 فلا يفترق بعضها من بعض ،
 ولا يتخلف بعضها عن بعض ،
 ولا يظهر بعضها على بعض ، لأنها
 جميعاً قد خضعت لرياضة روحية

واحدة ، وجعلت لها غاية روحية
 واحدة ، وأصبحت حياة صاحبها
 على هذا الوجه حياة روحية واحدة
 أخص خصائصها الجمع الذى يلقى
 التفرقة ، والوحدة التى تنفى الكثرة :
 فالجسد والنفس والروح والعقل
 والقلب والضمير ، كل أولئك انما
 يتحد فيك ، ويألف لديك ، وذلك
 عند ما تكون قد وصلت من رياضة
 نفسك ، وبجاهدة حرك ، الى الحد من
 سلطان القوى والمملكة الدنيا ،
 والبسط فى سلطان القوى والمملكة
 العليا ، وهنا لا يصبح لك خبر من
 حرك أو نفسك ، بل ولا يصبح
 لك خبر من عقلك وقلبك ، تحس
 وتشعر . وتروى وتفكر . وتقدر
 وتدبر ، وتقبل وتدبر ، الى غير ذلك
 بما تفعله أو تفعل به ، ولكنك لا تكاد
 تدري بأى من قواك ومملكائك ،
 ولا بأى من جوارحك وجوانحك
 تفعل هذا الذى تفعل ، وتفعل بهذا
 الذى به تفعل ، ذلك بأنك قد
 أصبحت بعد الرياضة والمجاهدة غير
 ما كنته قبلها ، وانتهيت من هذه
 الرياضة والمجاهدة الى هذه الحال التى
 تعرف عند الصوفية باسم الحال
 الموحدة ، وهى حال فيها شعور ذوقى

روحي واحد تعانقت فيه الأضداد ،
والتقت عنده قوى حياتنا الروحية
كلها بعد أن صفت وسمت ، فإذا
نحن لا نصدر إلا عنه ، ولا نشعر
إلا به .

على أن المرید ، وقد أخذه كلام
شيخه مرة أخرى ولكن أخذه هذه
المرة بعقله ودقته ، بقدر ما أخذه
منذ حين بسحره ورقته ، لم يخف على
أستاذة ما أحس في بعض هذا الكلام
من غموض وإبهام ، وما عسى أن
يكون فيه من عسر وإغراب قد يجالنه
عن بعض الأفهام ، فإذا هو يسأل
أستاذة فيقول :

ألا ترى يا سيدي أن وحدة
الحياة الروحية على هذا الوجه الذي
وصفت ، ليست من الواضوح والجلاء
بحيث يفهمها كل إنسان ؟ ألا ترى
أيضاً أنك لو ضربت لي ولو مثلاً
واحداً على تذوق وتحقيق وحدة الحياة
الروحية على الوجه الذي عرضت
لكان ذلك أقوم قليلاً وأهدى سبيلاً ؟
وهنا أجاب الشيخ مریده في
حزم فقال :

ومن قال لك يا بني أن هذا كلام
يقال لكل الناس ، وأن وحدة الحياة

الروحية في الإنسان أمر يستطيع أن
يتذوقه ويحققه كل إنسان ؟ ومن قال
لك أيضاً أنني سأقف بك عند هذا
الحد من الكلام ، ثم أتركك في بحر
من الغموض والإبهام ، تتقاذفك
أمواج الشكوك والأوهام ، دون أن
أضرب لك الأمثال ؟

ولمبنى حين أضرب لك الأمثال
فإن أخرج عن ذات نفسك كثيراً
أو قليلاً ، فمن عجب أنك تزعم أن
في كلامي غموضاً وإبهاماً ، وأنت مع
ذلك أكثر ما تكون استعداداً للتذوق
معنى الوحدة الروحية للحياة الإنسانية
وتحققها : فلعلمك تذكر أو لا تذكر
لست أدري ، وأكبر الظن أنك
ستذكر أنك قلت منذ هجمة إنك
أحببت الحق وتحققته لأنك تحب الله
الذي هو الحق الأعلى ، وإنك أحببت
الخير وحققته لأنك تحب الله الذي
هو الخير الأسنى ، وإنك أحببت
الجمال وتذوقته لأنك تحب الله الذي
هو الجمال الأسنى ، إلى آخر ما قلته
في هذا المعنى الذي إذا كان يثبت شيئاً
في نفسك ، فإنما يثبت قدرتك على
النظر إلى الحقائق العليا ، وإلى أعلى
هذه الحقائق بصفة خاصة ،
بعين الوحدة .

مالك من حس ونفس ، وليكن لك
حسا ونفسا وقلبا وعقلا وضميرا ،
وليكن لك من وراء هذا كله روح
صافية نقية ، تستطيع أن ترقى بك عن
حضيض المظاهر السفلية إلى أفق
المبادئ العلوية .

فإذا أردت يا بنى بعد هذا الذى قدمت
إليك أن تتذوق المعانى الروحية
السامية ، وأن تتحقق بمعرفة المبادئ
الإلهية العالية ، فحسبك أن يكون
مثلك فى هذا التحقق وذلك التذوق
كمثل سلطان العاشقين شرف الدين
عمر بن الفارض ، الذى لم تكن حياته
الروحية ومحبه الإلهية إلا تعبيراً
صادقاً عنه ، وتصويراً مشرقاً له .
وحسبك أيضاً أن تقرأ من تأنيته
الكبرى أبياته التى تعد بحق مرآة
صافية صادقة تنجلي على صفحتها أذواق
صاحبها بكل ما تنظرى عليه من معانى
الوحدة الروحية ، واتحاد القوى
والملاكات النفسية . وها هو ذا ابن
الفارص يعبر عن هذه المعانى متحدثاً
بلسان الحال التى انتهى إليها ، وأصبح
يدرك محبوبته الحقيقية عليها ، فإذا
هو يشدو فيقول :

وحسبى أن أضيف إلى ما قلت
أنت فى هذا المعنى كلاماً لعله أن يزيل
من نفسك ما حسبه غمراً أو إلهاماً ،
فأقول لك :

أحب الحق والخير والجمال مطلقاً
فى ذات الله ، وممينا متجلياً فى آيات
صنع الله ، وأعرف حقائق هذا كله
ودقائقه ورقائقه معرفة حتمية يقينية
لا يأتينا الشك من بين يديها ولا من
خلفها . ولكى تكون معرفتك
كذلك ، وتكون محبتك بمنجاة من
المراتى والممالك ، فأحب واعرف
لا يعضك ولكن بكك ، لا بتلبك
وحده ولا بعقلك وحده ، ولكن بقلبك
وعقلك ، ولا بحسك وحده ، أو
بنفسك وحدها ، ولكن بحسك
ونفسك . وبعبارة أخرى لعلها أدل
على ما أريد وأجمع له ، وأقرب إلى
المعنى الذى أشرت إليه وعبرت عنه ،
أقول لك : أحب الله بكل ما فيك
من قلب ، وأعرف الله بكل ما فيك
من عقل ، وأتق الله بكل ما فيك من
ضمير ، وأحس آيات صنع الله فى كل
ما أبدع من بحالى ذاته العلية ، بكل

إذا لاح معنى الحسن في أى صورة
 وناح معنى الحزن في أى سَوْرَة ٤١٠
 يشاهدها فكبرى بطرف تخيلي
 ويسمعها ذكرى بمسمع فطنتي
 ويحضرها للنفس وهمى تصورا
 فيحسبها في الحس فهمى نديمي
 فأعجب من سكرى بغير مدامة
 وأطرب في سرى ومعنى طريقي
 فيرقص قلبي وارتماش مفاصلي
 يصفق كالشادى وروحى قينى ٤١٤
 إلى أن يقول :

فلفظ وكلى بنى لسان محدث
 ولحظ وكلى في عين لعبرتى ٥٤٦
 وسمع وكلى بالتدى أسمع النداء
 وكلى في رد الردى يد قوة
 معانى صفات ماورا اللبس أثبتت
 وأسماء ذات ما روى الحس بثت ٥٤٨
 وإن ابن الفارض ليعن في تذوقه
 وحدة حياته الروحية ، ويفتن في
 تحققه بأرقى وأسمى أحوال المحبة
 الإلهية ، حيث يتصل بمحبوبته الحقيقية ،
 ويشهد ذاتها العلية ، ثم يريد أن يعبر
 عن هذا كله في ألفاظ وعبارات ،
 تبدو في ظاهرها كذلك ولكنها في
 حقيقتها دقائق وإشارات ، فإذا هو
 يشدد مرة أخرى فيقول :

وكلى لسان ناظر مسمع يد
 لنطق وإدراك وسمع وبطشة ٥٧٩
 فعينى ناجت واللسان مشاهد
 وينطق منى السمع واليد أصغت
 وسمعى عين تجتلى كل ما بدا
 وعينى سمع إن شدا القوم تنصت
 ومعنى عن إيد لسانى يد كما
 يدى لى لسان فى خطاى وخطاى
 كذاك يدى عين ترى كل ما بدا
 وعينى يد مبسوطة عند بسطى
 وسمعى لسان فى مخاطبى كذا
 لسانى فى إصغائه سمع منصت
 وللم أحكام اطراد القياس فى
 اتحاد صفاتى أو بمكس القضية
 وما فى عضو خص من دون غيره
 بتعيين وصف مثل عين البصيرة
 ومعنى على أفرادها كل ذرة
 جوامع أفعال الجوارح أحصت
 يتاجى ويصغى عن شهود مصرف
 بهجموعه فى الحال عن يد قدرة ٥٨٨
 قرأ الشيخ المرشد هذه الآيات
 فى صوته العذب الصافى ، ولم يكند
 يفرغ من قراءتها حتى قال له المريد
 المسترشد :

ما أروع وأمتع هذه الآيات ،
وما أدق وأرق هذه الإشارات ،
لكم قرأتها ووقفت عندها قبل اليوم ،
ولكنني ما فطنت إلى ما تنطوي عليه
من معاني الوحدة الروحية إلا الآن ،
ومع ذلك فأنا ما زلت أحس يا سيدي
أنها ما زالت في حاجة إلى كشف عنها
وتجلية لها ، فهلا وقفنا عندها وقفة
تكشف عن معانيها ، وتجلى أغراضها
ومراميها ؟

قال الشيخ المرشد :
لك ما تريد من هذه الوقفة ، ولكن
بعد أن نعود في حديثنا المقبل
إلى ما كنا بسبيله من الإبانة عن العقل
وحقيقته ، فقد أهدنا ، وشغلنا
حديث الذوق ورقته عن حديث
العقل ودقته .

محمد مصطفى هاشمي

كلمات صوفية

للإمام الجنيد

- التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى .
- عزيز النفس من لزم القناعة ، ولم يكشف لمخلوق قناعه .
- ما رأيت أحداً أعظم الدنيا فقرت عيناه بها .
- مبني التصوف على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم السلام ،
السخاء وهو لإبراهيم ، والرضا وهو لإسحاق ، والصبر وهو لآيوب ،
والإشارة وهي لكريا ، والقربة وهي ليحيى ، والبس الصوف وهو
لموسى ، والسياسة وهي لعيسى ، والنجاة وهي لمحمد صلى الله عليه وسلم .